الفصل السابع

استغفار الرسول صلى الله عليه وسلم لغيره

استغفار النبى ﷺ لغيره ورد فى القرآن الكريم فى ثلاثة مواضع: سورة آل عمران والنور والممتحنة، ولا يكون ذلك إلا للمؤمنين والمؤمنات.

المبحث الأول

الاستغفار الأول

قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[آل عمران: ١٥٩].

المناسبة:

هذه الآيات وما سبقها تتحدث عن غزوة أحد فقد ذكر الله تعالى فيما سبق انهزام المسلمين بسبب ترك الرُّماة لأماكنهم بالجبل، بعد أن أمرهم رسول الله ﷺ أن يثبتوا فى أماكنهم حتى لايأتيهم العدو من قبلهم، فلما رأى الرماة هزيمة المشركين انشغلوا بجمع الغنائم وتركوا مواقعهم فوق أُحد، فانتهزها خالد ابن الوليد وأبوسفيان بن حرب وطوّقوا المسلمين، وأصلوا السيف فيهم وحاقت بهم الهزيمة، وكان ما أصيبوا به من غم واضطراب، فأرشدهم الله إلى موطن الداء ووصف لهم الدواء.

وفى هذه الآيات الكريمة إشادة بالقيادة الحكيمة لرسول الله ﷺ، فمع مخالفة بعض الصحابة لأوامره فقد وسعهم ﷺ بخُلقُه الكريم وقلبه الرحيم، ولم يخاطبهم بالغلظة والشدة وإنما خاطبهم بالعطف واللين. ولذلك اجتمعت القلوب حول دعوته، وتوحدت تحت قيادته.

اللغة:

(فظا) الفظ: الغليظ الجافى، قال الواحدى: هو الغليظ سيىء الخلق، قال الشاعر:

أخشى فظاظة عم أو جفاء أخ وكنت أخشى عليها من أذى الكلم

(غليظ القلب) هو الذى لايتأثر قلبه ولايرق، ومن ذلك قول الشاعر:

يُبكى علينا ولانبكى على أحد؟ لنحن أغلظ أكباداً من الإبل[1]

(انفضُّوا) تفرقوا وأصل الفض الكسر ومنه قولهم: لا يفض الله فاك.

التفسير:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ أى فبسبب رحمة من الله أودعها فى قلبك يا محمد كنت ليّن الجانب مع أصحابك مع أنهم خالفوا أمرك وعصوك ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ والفظ الغليظ الكلام الجافى، أى لو كنت سيىء الكلام جافى الطبع قاسى القلب تعاملهم بالغلظة والجفاء، لتفرقوا عنك ونفروا منك وتركوك، ولكن الله جمعهم عليك وآلان جانبك لهم تأليفا لقلوبهم، ولما كانت الفظاظة فى الكلام، نفى الجفاء عن لسانه والقسوة عن قلبه، كما قال عبد الله بن عمرو: إنى أرى صفة رسول الله ﷺ فى الكتب المتقدمة أنه ليس بفظ ولا غليظ، ولاصخّاب فى الأسواق، ولايجزى السيئة، ولكن يعفو ويصفح ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ قال الكشاف: فاعف عنهم، فيما يتعلق بحقك، أى تجاوز عما نالك من أذاهم يا محمد، والعفو هو الصفح وعدم المؤاخذة، ولقد عفا الله عنهم، وأخبر بذلك فيما سبق من الآيات ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ أى صفح عنكم مع العصيان، وفيه إعلام بأن الذنب كان يستحق أكثر مما نزل بهم، لولا عفو الله عنهم ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾[آل عمران: ١٥٢] أى ذو نعمة على المؤمنين فى جميع الأوقات والأحوال،

(١) البحر المحيط: ٣/ ٨١.

ثم أمر الله رسوله أن يعفوا ويصفح عن صحابته المؤمنين تخلّقا بأخلاق الله كما قال ﷺ «تخلقوا بأخلاق الله» وظاهر الأمر هنا للوجوب، والفاء للتعقيب ليدل ذلك على كمال الرحمة الإلهية ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ قال الكشاف فى تفسيره: استغفر لهم فيما يتعلق بحق الله تعالى، لهؤلاء الرُّماة الذين تركوا الجبل ونسوا نصيحتك، فلم يكن ذلك منهم تمرّداً على أمر رسول الله ﷺ، وإنما أخطأوا فى اجتهادهم لأن هؤلاء الرُّماه غلب على ظنهم وهم يرون إخوانهم يجمعون الأسلاب والغنائم أن المعركة قد انتهت لصالح إخوانهم المسلمين، ففعلوا ما فعلوا ولم يدر بخلدهم ما حدث، فكان ابتلاء الله لهم وهزيمتهم فى أُحد، ثم عفا الله عنهم ورسوله، واستغفر لهم الرسول وكان فضل الله على المؤمنين عظيما..

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أى وشاورهم فى جميع أمورك ليقتدى بك الناس قال الحسن: «ما شاور قوم قط إلا هُدوا لأرشد أمورهم» وكان عليه السلام كثير المشاورة لأصحابه ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ﴾ بعد الاستشارة فاعتمد على الله، وفوّض أمرك إليه ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ أى يحب المعتمدين عليه، والمفوّضين أمورهم إليه.

المبحث الثانى

الاستغفار الثانى

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[النور: ٦٢].

أسباب النزول:

قال المفسرون: نزلت هذه الآية فى وقت حفر الخندق، فإن بعض المؤمنين

كانوا يستأذنون فى الانصراف لضرورة، وكان المنافقون يذهبون بغير استئذان فنزلت تمدح المؤمنين الخالصين، وتعرّض بذم المنافقين.

التفسير:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أى إنما المؤمنون الكاملون فى الإيمان الذين صدّقوا الله ورسوله تصديقا جازما لايخالجه شك ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ أى وإذا كانوا مع الرسول فى أمر هام فيه مصلحة للمسلمين ﴿لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ أى لم يتركوا مجلسه حتى يستأذنوه فيأذن لهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ هذا توكيد لما تقدم ذكره تفخيما وتعظيما لشأن الرسول ﷺ، أى إن الذين يستأذنوك يا محمد أولئك هم المؤمنون حقا. قال الصاوى: أعاده مؤكداً على أسلوب أبلغ فإن جعل المستأذنين هم المؤمنين عكس الأسلوب الأول، وفيه تأكيد للأول بذكر لفظ الله ورسوله فيكون مصداقا ودليلا على صحة الإيمان[1] ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ أى فإذا استأذنك بعض هؤلاء المؤمنون لبعض شئونهم ومهامِّهم[2] ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ أى فاسمح لمن أحببت بالانصراف إن كان فيه حكمة ومصلحة ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ﴾ أى وادع الله لهم بالعفو والمغفرة، فإن الاستئذان ولو لعذر قصور لأنه تقديم لأمر الدنيا الفانية على أمر الدين ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أى عظيم العفو واسع الرحمة.

المبحث الثالث

الاستغفار الثالث

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا

---

(١) حاشية راده على الصاوى: ٣/ ٤٤٠.

(٢) قال ابن عباس: ان عمر رضى الله عنه استأذن النبى ﷺ فى العُمرة فأذن له ثم قال: «يا أبا حفص لاتنسنا من صالح دعائك».

وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[الممتحنة: ١٢]

سبب النزول:

نزلت الآية فى بيعة النساء قال أبو حيان: كانت بيعة النساء فى ثانى يوم الفتح على جبل الصفا بعدما فرغ من بيعة الرجال، وكان رسول الله ﷺ على الصفا وعُمر أسفل منه، يبايعهن بأمره ويبلغهن عنه، وما مسّت يده عليه الصلاة والسلام يد امرأة أجنبية قط[1]..

التفسير:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا ﴾ أى إذا جاء إليك النساء المؤمنات للبيعة فبايعهن على هذه الأمور الستة الهامة، وأولها عدم الإشراك بالله جل وعلا ﴿وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ﴾ أى ولا يرتكبن جريمة السرقة ولا جريمة الزنى التى هى من أفحش الفواحش ﴿وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ﴾ أى ولا يئدن البنات كما كان يفعل أهل الجاهلية خوف العار أو خشية الفقر. قال ابن كثير: وهذا يشمل قتله بعد وجوده، كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق أو العار، ويعم قتله وهو جنين كما يفعله بعض النساء الجاهلات تُطرح نفسها لئلا تحبل، إما لغرض فاسد أو ما أشبه[2] ﴿وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ أى لا تنسب إلى زوجها ولداً لقيطاً ليس منه تقول له: هذا ولدى منك. قال المفسِّرون: كانت المرأة إذا خافت مفارقة زوجها لها لعدم الحمل، التقطت ولداً ونسبته لها ليبُقيها عنده، فالمراد بالآية اللقيط، وليس المراد الزنى لتقدمه فى النهى صريحا[3] قال ابن عباس: لا تلحق بزوجها ولداً ليس منه، وقال الفراء: كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها: هذا ولدى منك،

---

(١) البحر المحيط: ٨/٢٥٨.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ٣/٤٨٩.

(٣) انظر حاشية الصاوى على الجلالين (٤/ ٢٠٠)، وتفسير أبى السعود (٥/١٥٨)، وتفسير الرازى (٢٩/٨/٣٠٨).

وإنما قال ﴿يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ لأن الولد إذا وضعته الأم سقط بين يديها ورجليها[1] ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ أى ولا يخالفن أمرك فيما أمرتهن به من معروف[2]، أو نهيتهن عنه من منكر، بل يسمعن ويطعن ﴿فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ﴾ أى فبايعهنّ يا محمد على ما تقدم من الشروط واطلب لهن من الله الصفح والغفران لما سلف من الذنوب ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أى واسع المغفرة عظيم الرحمة.

وقالت «أسماء بنت السكن» كنت فى النسوة المبايعات، فقلت يا رسول الله: ابسط يدك نبايعك، فقال لى ﷺ: «إنى لا أصافح النساء، ولكن آخذ عليهن ما أخذ الله عليهن»، وكانت هند بنت عتبة - وهى التى شقت بطن حمزة بن عبد المطلب يوم أحد - متنكرة فى النساء، فلما قرأ عليهن الآية ﴿عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ﴾ قالت وهى متنكره[3] يا رسول الله: إن أبا سفيان رجل شحيح، وإنى لأصيب الهنة - أى الشىء القليل وبعض الشىء - من ماله، لا أدرى أيحل لى ذلك أم لا؟ فقال أبو سفيان: ما أصبت من شىء فيما مضى أو فيما بقى فهو لك حلال، فضحك رسول الله ﷺ وعرفها فقال لها: وإنك لهند بنت عتبة؟

قالت: نعم، واعف عما سلف يا رسول الله، فصرف عنها رسول الله ﷺ، فقال ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾، قالت: أوتزنى الحُرّة؟ «قال: والله ما تزنى الحُرّة»، فلما قرأ ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ قالت: ربيناهم صغاراً وقتلتهم كباراً فأنتم وهم أعلم وكان ابنها حنظلة قد قتل يوم بدر فضحك عمر حتى استلقى، وتبسّم

---

(١) روح المعانى للألوسى: ٢٨/ ٨٠.

(٢) وقيل نهاهن عن النياحة واتباع الجنائز، وفى الصحيحين عن ابن مسعود «ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية» وروى الحافظ أبو يعلى عن أبى موسى «أربع فى أمتى من أمر الجاهلية لايتركونهن: الفخر فى الأحساب والطعن فى الأنساب والاستسقاء بالنجوم والنياحة على الميت» وقال: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب» رواه مسلم فى صحيحه منفرداً.

(٣) وهى عادة فيهم إلى اليوم فلا يصح أن يقال أنها تنكرت حتى لا يعرفها الرسول ﷺ كما قيل.

رسول الله ﷺ، فلما قرأ ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾، قالت هند والله إن البهتان لأمر قبيح، ولا يأمر الله إلا بالرشد ومكارم الأخلاق، فلما قرأ ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ قالت: والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفى أنفسنا أن نعصيك فى شيء[1]. وأخرج الإمام أحمد عن «أميمة بنت رقيقه» - أخت السيدة خديجة وخالة فاطمة الزهراء رضى الله عنهن - قالت: أتيت رسول الله ﷺ فى نساء لنبايعه، فأخذ علينا ما فى القرآن ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ الآية وقال «فيما استطعتن وأطقتن» فقلنا: الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا، قلنا: يا رسول الله: ألا تصافحنا؟

قال: «إنى لا أصافح النساء إنما قولى لامرأة واحدة قولى لمائة امرأة»[2].

ويشاهد فى الاستغفار المحمدى لغيره أنه خاص بالمؤمنين حيث قال الله تعالى:

فى الآية الأولى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وفى الآية الثانية: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾ [النور: ٦٢].

وفى الآية الثالثة: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ...﴾ [الممتحنة: ١٢].

المبحث الرابع

استغفار الرسول ﷺ لنفسه وللمؤمنين والمؤمنات (فى آية واحدة).

قال الله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾﴾[محمد: ١٩].

سيقت هذه الآية بعد أن بيّن الله تعالى حال الكافرين والمنافقين، قال الإمام الفخر: لما بيّن تعالى أن المنافق يستمع ولا ينتفع، ويستعيد ولا يستفيد، بين أن

---

(١) تفسير البحر المحيط (٨/ ٢٥٨)، والتفسير الكبير للرازى (٢٩/ ٣٠٧).

(٢) أخرجه أحمد والترمذى والنسائى.

حال المؤمن المهتدى بخلافه، فإنه يستمع ويفهم ويعمل بما يعلم وفيه فائدة وهو قطع عُذر المنافق، فإنه لو قال: ما فهمت كلامه لغموضه، يرد عليه بأن المؤمن فهم واستنبط فذلك لعماء القلوب لا لخفاء المطلوب، ثم بيّن تعالى الساعة وأشراطها ومنها بعثة خاتم الرسل ﷺ فإذا جاءت الساعة بغته، وعلم ذلك عند الله وحده، وهم على غيّهم سادرون غافلون، فمن أين لهم التذكر حيث لا ينفع ندم ولا توبة؟!

ثم جاءت الآية الكريمة ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ هذا إخبار بأنه لا إله إلا الله ولا يتأتى كونه آمراً بعلم ذلك، ولهذا عطف عليه بقوله عز وجل ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يقول «اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى وإسرافى فى أمرى، وما أنت أعلم به منى، اللهم اغفر لى هزلى وجدى وخطئى وعمدى وكل ذلك عندى» وفى الصحيح أنه كان يقول فى آخر الصلاة «اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت وما أنت أعلم به منى أنت إلهى لا إله إلا أنت» وفى الصحيح أنه قال «يا أيها الناس توبوا إلى ربكم فإنى استغفر الله وأتوب إليه أكثر من سبعين مرة»، وروى أبو يعلى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال «عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار وأكثروا منهما فإن إبليس قال إنما أهلكت الناس بالذنوب وأهلكونى بلا إله إلا الله والاستغفار فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء فهم يحسبون أنهم مهتدون» وفى الأثر المروى «قال إبليس: وعزتك وجلالك لا أزال أغويهم ما دامت أرواحهم فى أجسادهم، فقال الله عز وجل: وعزتى وجلالى لا أزال اغفر لهم ما استغفرونى» والأحاديث فى فضل الاستغفار كثيرة جداً.

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ أى قدم يا محمد على ما أنت عليه من العلم بوحدانية الله ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أى اطلب من الله المغفرة لك وللمؤمنين والمؤمنات، روى الإمام أحمد عن عبد الله بن سرخس قال: أتيت رسول الله ﷺ وأكلت معه من طعامه، فقلت: غفر الله لك يا رسول

الله، فقال ﷺ «ولك» فقلت: استغفر لك؟ فقال رسول الله: «نعم ولكم»، وقرأ «واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات»[1].

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ أى يعلم تصرفكم فى الدنيا، ومصيركم فى الآخرة، فأعدوا الزاد ليوم المعاد.

لماذا كان استغفاره صلى الله عليه وسلم؟

يحتمل هذا أحد وجوه ثلاثة :

١- أى استغفر لذنب أهل بيتك على تقدير مضاف محذوف.

٢- أو أن يكون استغفاره لتركه الأفضل والأولى، وهو كما قلنا حسنات الأبرار سيئات المقربين.

٣- أو يكون المراد من استغفاره ﷺ طلب دوام العصمة.

قالوا: وللنبى ﷺ ثلاثة أحوال:

أولها: حال مع الله وهو أن يكون لله موحداً.

ثانيها: حال مع نفسه بالاستغفار لذنبه وطلب العصمة.

ثالثها: حال مع غيره بطلب المغفرة من الله للمؤمنين والمؤمنات.

---

(١) ورواه مسلم والترمذى والنسائى.